دار المشرق

المشرق الرقميّة

مجلّة إلكترونيّة تصدر مرّتين في السنة عن دار المشرق
العدد الثاني، حزيران ٢٠١٣

تغيّر مفهوم الزمن والأزمة البيئيّة

الأب سامي حلّاق اليسوعيّ*

هل يسير الزمن بشكلٍ دورانيّ؟ يقول بعضهم: نعم! ففي كلّ سنةٍ تتتابعُ الفصول، وتتكرّر في السنة التالية، وتدور الأرض حول الشمس طوال السنة لتعيد دورانها في السنة التالية، وكذلك الأمر في ما خصَّ تناوب الليل والنهار. كلّ ما يحدّد الزمن يسير بشكلٍ متكرّرٍ.

ويقول آخرون: لا! الزمن يسير بشكلٍ خطّيّ: العمر يتقدّم ولا يدور. الطفولة تمضي ولا تعود، والتاريخ يسير من سنةٍ إلى سنة في طريق اللاعودة.

ويبدو أنّ القدماء كانوا يتصوّرون حركة الزمن الدورانيّة، والآن نتصوّرها خطّيّة. وبسبب تغيير هذا التصوّر، حدثت الأزمة البيئيّة التي نعانيها الآن. لماذا؟ سوف نعرض السبب في هذا المقال.

الزمن الدورانيّ

كان إنسان الحضارات القديمة يتصوّر الزمن بشكلٍ دورانيّ، إذ في كلّ سنة تتكرّر الفصول بإيقاعٍ منتظم: الشتاء والربيع والصيف والخريف، ولا جديد تحت الشمس (سفر الجامعة ١: ٩). وربطت هذه الشعوب «**تكرار الأمر نفسه**

---

* باحث. له عدّة كتابات في الفنّ البيزنطيّ والأيقونات. عضو في أسرة دار المشرق.

بصورة دائمة» بأسطورةٍ بدئيّة انطلق فيها هذا النظام الدورانيّ (للاطّلاع على مفاهيم الزمن لدى الشعوب القديمة، راجع: Mircea Eliade, **le Mythe et l'éternel retour, archétypes et répétition**, Gallimard, Paris, 1969.). فإذا أراد الإنسان أن يمنح حياتَه ونشاطه معنًى، عليه أن يدرجهما في مسار الزمن المتكرّر (نجد هذه النظرة في الديانتَيْن الهندوسيّة والبوذيّة، خصوصاً في السمسرة أي الولادة المتكرّرة). وإذا حدث أمر طارئ - وباء، جفاف... - يواجهه الإنسان بالطقوس. لأنّ الطقوس تمنح الإنسان شعوراً بالأمان في هذا العالم العبثيّ المقلق.

تنقسم طقوس الإنسان القديم إلى قسمَيْن: طقوس فرديّة تقام لمواجهة حدثٍ طارئٍ يعتبره الإنسان شوائب في دوران الزمن المنتظم، ويتطلّب تدخّلًا إلهيًّا؛ وطقوس جماعيّة تقام في مواعيد ثابتة وهي الأعياد؛ ويتمّ فيها تكرار الزمن البدئيّ الّذي تمّت فيه الأمور الأساسيّة للخليقة. فاحتفال العيد يجعل الزمن البدئيّ حاضراً ليولّد الزمن اليوميّ مرّة أخرى كما حدث في البدء.

على هذا الأساس، ينقسم الزمن إلى فئتَيْن: زمن الحياة اليوميّة وزمن الأعياد. في الحياة اليوميّة يمضي الزمن ويشيخ ويتلف. وفي الأعياد يولد الزمن مرّةً أخرى، إذ يتكرّر في العيد حدثُ ظهوره. هذا ما نراه في احتفالات مردوك ببلاد ما بين النهرين، واحتفالات أدونيس لدى الفينيقيّين، واحتفالات آمون في مصر، واحتفالات سائر الديانات القديمة. هذه الاحتفالات هي تكرار الأمر نفسه تكرارًا دائمًا. فالقدماء يحتفلون بموت الخليقة ثمّ يحتفلون بولادتها ثانيةً لتعيش سنةً كاملة، ثمّ تموت فيحيون ذكرى موتها باحتفال، وباحتفالٍ أيضًا يعيدونها إلى الوجود، وهكذا دواليك.

لقد حافظت الديانات اللاحقة على هذا المفهوم، ونظّمت أعيادها بحسب إيقاع السنة. ففي كلّ سنةٍ تُعاد الأحداث التأسيسيّة بحسب مبدأ **تكرار الأمر نفسه تكرارًا دائمًا**. وليس هدف الإعادة التذكير بالماضي بل تأوينه، أي جعله حاضراً وكأنّه يحدث الآن. وتُطلَق على هذه الإعادة الّتي تتمّ عموماً داخل إطار احتفالٍ، صفة «الإحياء». إنّه إحياء ذكرى، أي إعادة الحياة لما حدث، وعيشه كأنّه

يحدث الآن. ويقال الأمر نفسه حتّى الآن في المناسبات الوطنيّة: ذكرى استقلال، انتصار في حرب، ثورة... بهذه الطريقة، يتمّ تحويل خبرةٍ عابرة في التاريخ، حدثت لمرّةٍ واحدة، إلى طقسٍ يمكنها أن تتكرّر فيه على الدوام.

على هذا الأساس، ليس لدى الإنسان القديم ماضٍ. إنّه يعيش في حاضرٍ أبديّ، لأنّ الماضي يتكرّر. إنّه ليس حدثاً تمّ ثمّ زال، بل حدث سيتكرّر. الأشياء تظهر وتختفي مع الزمن. وبما أنّ الزمن هو العودة المتكرّرة أبداً، كلّ شيء يبقى في الواقع. فالتكرار الدائم يحافظ على الكون حيّاً ويجدّده انطلاقاً من أصوله الأزليّة.

الديانات التوحيديّة والزمن الخطّيّ

في البداية، تصوّر اليهود الزمن بشكلٍ دورانيٍّ لا متناهٍ. إنّه تتابع أحداثٍ تجري في الزمن، ولكلّ حدثٍ زمنه: زمن للزرع وزمن للحصاد، زمن للولادة وزمن للموت (مثل ٣: ١-٨). فلا حدث بدون زمن ولا زمن بدون حدث.

وتطوّر مفهوم الزمن لديهم بعد أحداث الخروج. كان المفهوم الأوّل يعتمد على خبرة **تكرار الأمر نفسه تكرارًا دائمًا**. وفي الخروج من مصر، اختبر العبرانيّون حدثاً لن يتكرّر. حدثٌ أثَّرَ لاحقًا في الشعب من جيلٍ إلى جيل، حدثٌ مؤسّس للتاريخ. وتلت هذا الحدث أحداثٌ أخرى اختبروا فيها مسيرة الله مع شعبه، وتعوّدوا أن يروووها لأبنائهم وأحفادهم. بذلك اكتشفوا مفهوم التتالي التاريخيّ، **ولم يعد الزمن دورانيّاً وحسب، بل أصبح خطّيّاً أيضاً**. إنّه مسيرة إلهٍ مع شعبه. في هذه المسيرة كلّ حدثٍ هو فريد عجيب. والوعد الإلهيّ يُظهِرُ ارتباط هذه الأحداث بعضها ببعض والغاية النهائيّة منها.

في أيّام السبي، نال التفكير التاريخيّ صبغةً إسكاتولوجيّة.وصار اليهود يؤمنون تدريجيًّا بقيامة الأموات، لا كما يؤمن بها الفراعنة أو الهندوس أو البوذيّون، أي عودة إلى الحياة الأرضيّة لبداية دورةٍ جديدة (زمن دورانيّ)، بل بطريقةٍ خطّيّة: لن تكون هناك عودة، والزمن لن يتكرّر. أمّا تكرار الفصول

فيشبه حلقةً تتدحرج على منزلق. صحيح أنّها تسير بحركةٍ دورانيّة، لكنّها تتقدّم على طريقٍ لا عودة فيه.

ولم ينحصر هذا المفهوم في اليهوديّة وحسب، بل في المسيحيّة والإسلام أيضًا. فمفهوم الزمن في الديانات التوحيديّة مفهوم خطّيّ يسير دومًا إلى الأمام، وما يحدث لن يتكرّر. ومن شدّة الإلحاح على الاختلاف النوعيّ بين ماضٍ تسوده الخطيئة ومستقبلٍ يسوده الصلاح، لم تعد هناك استمراريّة بين هذا وذاك: يصير ماضياً كلّ ما لم تعد له قيمة ولا مفعول؛ ويصير حاضراً كلّ ما له قيمة ومفعول. ويصير مستقبلاً كلّ ما لم يتمّ اختباره الآن **ومع ذلك فهو حاضر مرجوّ**، أي قيامة الأموات والحياة الأبديّة. هذا يعني أنّ حاضر المؤمن لا يتحدّد بالماضي بل بالمستقبل. فحاضره تحرّر من الماضي وانفتاح على ما سيأتي.

الزمن الخطّيّ والأزمة البيئيّة

أدّت النظرة الخطّيّة إلى فقدان مفهوم إيقاع الطبيعة، وصار التاريخ من صنع البشر وليس مسارًا محتومًا يتكرّر بخطوطه العامّة ويتباين بتفاصيله الصغيرة. لم يعد مصير البشر يتوافق مع تاريخ الطبيعة، فحلّت الغايات البشريّة محلّ المسار الطبيعيّ، ولم يعد الناس يسعون إلى العيش بشكلٍ يتوافق مع الطبيعة كما ينصح الرواقيّون، بل صاروا يعيشون بحسب تصوّرهم الشخصيّ لِما يريدون أن يحصلوا عليه من أعمالهم، ولِما يمكنهم أن ينتظروه من نتائج هذه الأعمال.

وحيث إنّ إيقاع الزمن الدورانيّ يرتبط ارتباطاً وثيقًا بالطبيعة، انفصل التاريخ الحديث عن هذا الإيقاع بانفصاله عن الطبيعة، وصار إيقاعه خطّيّاً تتحكّم به الساعة الّتي صارت في المجتمع الصناعيّ آلة قياسٍ ضابطة الكلّ. ورُفِعَ شعار الساعة: التقدّم دوماً. وبُنيَ هذا الشعار على محوريّة الإنسان: التقدّم دوماً في الهيمنة على الطبيعة لصالح الإنسان. وإذ أقصيَت العناصر الأخرى، أُقصيَ معها السؤال: التقدّم إلى أين، وبأيّ ثمن؟ وتوطّدت في الأذهان فكرة الطريق الواحد إلى التقدّم، وعدم وجود بديلٍ له. وكان لا بدّ من ظهور الأزمة البيئيّة كي

تتولّد الشكوك، ويظهر إدراك ذلك السؤال المُستبعَد. فنحن لا نعرف اليوم إلى متى تحتفظ الأزمات الحاليّة بقدرةٍ على الارتداد، ولا متى ستصبح بواكير كارثة لا مفرّ منها. حين جُعِلَ التاريخ الخطّيّ رمزًا أساسيًّا للعالم، لم يتحسّن وضع العالم تدريجيّاً، بل صار حرجاً أكثر فأكثر.

الخاتمة

حين تصوّر الإنسان الزمن بشكلٍ دورانيّ، فهم أنّ هناك إيقاعًا عليه احترامه، وربط هذا الإيقاع بقصصٍ وأساطير ضمّها إلى ديانته، وبذلك خضع لهذا الإيقاع راضيًا. إنّه يقبل مثلاً ألاّ يأكل العنب في الشتاء ولا البرتقال في الصيف، لأنّ قصصه تربط ظهور العنب بفعلٍ إلهيّ يجب قبوله كما هو.

وعندما صار الإنسان يتصوّر الزمن بشكلٍ خطّيّ، أصبح التقدّم حتميّةً مفروضة عليه: تقدّم في الصناعة والزراعة والإنتاج والاقتصاد... بيد أنّ التقدّم يفترض وجود موادّ أوّليّة. وحيث إنّ الموادّ الأوّليّة محدودة في كوكبنا، بلغ التقدّم الذروة من ناحية استهلاكها، وبات من المحتّم عليه أن يبدأ بالتراجع. وإذ رفض الإنسان هذا التراجع، فاق الاستهلاك ما يمكن أن تقدّمه الطبيعة ، فبدأ التدهور، وظهرت المشكلات البيئيّة.

إنّ تاريخ البشر يتمّ داخل نظامٍ بيئيٍّ كبيرٍ وشاملٍ وهو نظام الأرض. فالتدفّق الدائم والثابت للطاقة الشمسيّة، ودورة الهواء والماء، والفصول الأربعة، ودورة القمر، والتناوب المنتظم للّيل والنهار، تمثّل المحيط الطبيعيّ الضروريّ للأزمنة والعصور ولغايات التاريخ البشريّ. وهذا النظام الطبيعيّ الشامل، يهدّده التاريخ البشريّ، ولذلك ينبغي احترامه.